الأثر الاجتماعى للحملة الفرنسية

وهناك فترة قصيرة من هذا الزمن الذى أرخ له الجبرتى . كانت ذات أثر كبير فى حياة مصر الاجتماعية . بل فى جميع نواحى الحياة فيها . ولكنا نقتصر على موضوعنا فى الأثر الاجتماعى والفكرى . وهذه الفترة القصيرة ذات الأثر الكبير ، هى فترة الأحتلال الفرنسى لمصر .

وكما أنى لن أذكر جميع نواحى الحياة التى تأثرت بدخول الفرنسيين مصر ، وإقامتهم فيها . كذلك لن أذكر جميع الآثار الفكرية والأجتماعية لذلك . بل أذكر تلك التى أدركها الجبرتى وسجلها . حتى لا أبعد عن موضوع الكتاب .

على أن الجبرتى سجل من آثار هذه الحملة الفرنسية، فى حياة مصر الاجتماعية، شيئاً غير قليل ، لا فى كمه ولا كيفه .

ذكر من هذه الآثار أشياء مدح بها الفرنسيين ، وشكرها لهم ، وأثنى عليهم فيها . وذكر لهم أشياء عابها عليهم ، أو عاب على أهل وطنه من المسلمين ، أو من المصريين ،أن يتأثروا بها، وأن يقلدوهم فيها . وذكر أشياء لمجرد التسجيل والرواية. لم يمدح ولم يقدح ولم يبد رأياً .

المرأة المصرية

وكان أبرز هذه الآثار التى سجلها الجبرتى ، ما تأثرت به حياة المرأة المصرية أو القاهرية ، بوجود الفرنسيين فللفرنسيين فى هذه الناحية تقاليد اجتماعية فيها كثير من التسامح والتلطف لم تعرفه الحياة المصرية ، فلما عرفته كان لها على النساء ، والرجال أيضاً ، إغراء شديد .

عرفت القاهرة الخلطة العلنية بين الرجل والمرأة . فقد أنشأ الفرنسيون متنزها ، ، فى غيط النوبى ، بالأزبكية ، وصفه الجبرتى بأنه « أبنية على هيئة مخصوصة منتزهة ، يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة ، فى أوقات مخصوصة . وجعلوا على كل من يدخل إليه قدراً مخصوصاً يدفعه . أو يكون مأذوناً وبيده

ورقة » أى تصريح بالدخول . ومما لا شك فيه أن هذه الأماكن لم تكن قاصرة على الفرنسيين . بل كان يغشاها كذلك بعض المصريين .

وعرفت القاهرة ، لأول مرة ، المسرح والتمثيل . وقد ذكر أن حفلاته كانت تقام فى كل عشرة ليال مرة واحدة ، لمدة أربع ساعات . يتفرجون فيها « على ملاعيب يلعبها جماعة منهم ، بقصد التسلى والملاهى » . وكان ذلك باللغة الفرنسية .

وقد لقيت هذه الحياة الاجتماعية المرحة قبولا عند أهل القاهرة . حتى إن الحاكم العسكرى الفرنسى لحى المشهد الحسينى . أباح لتابع له ، ولترجمانه — وكان واحد منهما يهودياً ، والثانى من مدينة حلب ، كان أسيراً فى جزيرة مالطة ففكّ نابليون أسره ، مع من كان فيها من أسرى المسلمين ، واستخدمهم فى مصر والشام — أباح الحاكم الفرنسى لتابعيه هذين أن يؤسسا « قهوة » فى هذا الحى . كان الناس يجلسون فيها إلى وقت من الليل . وأباح لهم فيها « التسلى والخلاعات » حتى فن بها أهل المشهد الحسينى « ووافق ذلك هوى العامة . لأن أكثرهم مطبوع على المجون والخلاعة ، وتلك هى طبيعة الفرنساوية » . فصاروا يجتمعون عنده للسمر والحديث ، واللعب والمهازحة . ويحضر معهم ذلك الحاكم ، ومعه زوجته ، وكانت مصرية من « أولاد البلد المخلوعين » . وفى هذه القهوة عرف الحاكم الفرنسى أن المصريين يحتفلون فى كل عام بمولد الحسين . وأنهم يخشون إقامته عام ذاك ، لوجود الفرنسيين . فأذن لهم فى أن يقيموه ، بل ألح عليهم فى ذلك ، فأقيم .

وفى حى الخليفة ، أنشأ تابع الحاكم الفرنسى قهوة أيضاً . وكان هذا التابع مولعاً براقصة . فكان يجىء بها ومثيلاتها إلى القهوة . ثم يجتمع مع كثيرين من أضرابه من المصريين « وترقص لهم تلك المرأة فى القهوة ليلا ونهاراً ، وتبيت معهم فى البيت . ويصبحون على حالهم » . ولم يكن هذا الأثر قاصراً على عامة الناس والسوقة . فقد كان لبعض الأمراء زوج اسمها « هوى » فلما حضر الفرنسيون « خرجت عن طورها » كما يقول الجبرتى ، وتزوجت نقولا القبطان .

وكان صاحب حظوة كبيرة عندهم . فلما خرج الفرنسيون اختفت . ثم عاد زوجها فأظهر العفو عنها ، حتى ظهرت . ثم قتلها خنقاً .

وكذلك تزوج كثير من الفرنسيين « بنات الأعيان » . وكانوا يظهرون إسلامهم عند العقد . ثم لبس أزواجهن هؤلاء ملابس الفرنسيات ، وسلكن سلوكهن . ونهجن نهجهن فى الحياة والمعيشة .

وقد لخص الجبرتى هذا الأثر فى حياة المرأة المصرية ، تلخيصاً واضحاً قوياً ، فى هذه السطور : — « ومنها — أى من حوادث سنة ١٢١٥ — تبرج النساء ، وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء . وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ، ومع البعض منهم نساؤهم . كانوا يمشون فى الشوارع ، مع نسائهم ، وهن حاسرات الوجوه ، لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى ، والمزركشات المصبوغة ، ويركبن الخيول والحمير ، ويسوقونها سوقاً عنيفاً ، مع الضحك والقهقهة ، ومداعبة المكارية معهم ، وحرافيش العامة ، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء ، من النساء الأسافل ، والفواحش . فتداخلن معهم ، لخضوعهم للنساء ، وبذل الأموال لهن . وكان ذلك التداخل ، أولاً ، مع بعض احتشام ، وخشية عار ، ومبالغة فى إخفائه فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر[1] ، وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا فى أهلها ، وغنموا أموالها ، وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات ، صرن مأسورات عندهم ، فزيوهن بزى نسائهم ، وأجروهن على طريقتهن فى كامل الأحوال . فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية . وتداخل مع أولئك المأسورات ، غيرهن من النساء الفواجر . ولما حل بأهل البلاد ، من الذل والهوان ، وسلب الأموال ، واجتماع الخيرات فى حوزة الفرنسيس ، ومن والاهم ، وشدة رغبتهم فى النساء ، وخضوعهم لهن ، وموافقة مرادهن ، وعدم مخالفة هواهن — ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها[2] — فطرحن الحشمة والوقار ، والمبالاة والاعتبار ، واستملن

---

(١) تجد تفصيل ذلك فى الجزء الثالث من هذا الكتاب

(٢) حذائها

نظرائهن ، واختلسن عقولهن ، لميل النفوس إلى الشهوات ، وخصوصاً عقول القاصرات[١] » .

ويشير نقولا الترك إلى ذلك أيضاً . فيقول إنه — بمقتضى شروط الصلح التى خرج بها الفرنسيون — أبيح لكل راغب فى السفر معهم أن يسافر . وأُوجب على السلطات التى حلت محل الفرنسيين فى الحكم ، أن تمكنهم من ذلك . ويذكر كثيرين ممن خرجوا معهم . ثم يقول « وتهيأ معهم عدة أنفار من عامة الناس ، ونساء كثيرات من الاسلام — أى من المسلمين — كن متزوجات للفرنساوية ، واستعدوا للسفر معهم[٢] بل يقول نقولا ما هو أصرح من ذلك وأفصح ، وهو بنصه : « وخرجت النساء خروجا شنيعاً مع الفرنساوية : وبقيت مدينة مصر مثل باريس ، فى شرب الخمر ، والمسكرات . والأشياء التى لاترضى رب السماوات » .

ولا نستطيع أن نسجل أثر الحملة الفرنسية على حياة المرأة القاهرية ، من غير أن نذكر قصة البكرية .

زينب بنت البكرى

كان السيد خليل البكرى ، أبو هذه الفتاة ، واحداً من أفراد هذه الأسرة العريقة ، ذات المكانة العالية فى المجتمع المصرى . ونجد شيئاً من حديثه فى موضع آخر من هذا الجزء . فلما قدم الفرنسيون ، كان صديقاً لهم ، قريباً إليهم ، ملتصقاً بهم لصوقاً شديداً . عندما دخل نابليون القاهرة عائداً من غزوة الشام ، أهدى إليه خليل هذا جواداً عربياً أصيلا ، له سرج مطرز بالذهب والياقوت واللؤلؤ . وأهداه معه رستم المملوك ، الذى سافر مع نابليون وعاش معه فى فرنسا . وكان له شأن عظيم بعد ذلك فى حياة نابليون . كما أهدى البكرى لنابليون عدداً من الهجن القوية السريعة ، وعدداً من الجوارى البيض والسود ، والشيلان الكشميرى ، والأسلحة المذهبة المحلاة بالجواهر الكريمة ، والأقمشة الحريرية ، من صناعة الهند والصين ، وكثيراً من العطور النادرة ، والصندل والعود .

---

(١) مانقتبسه من الجبرتى ، نورده بنصه ، وبأخطائه أيضاً . وكذلك نقولا الترك .

(٢) ص ٢٢٢ من كتاب « ذكر دخول الفرنساوية ، الديار المصرية والأقطار الشامية طبع باريس سنة ١٨٣٩

وقد وصف مسيو بوسليج[١] السيد خليلا البكرى فى رسالة منه إلى نابليون بأنه رجل هيّاب ، وجل . وقد أعفاه الفرنسيون من الضرائب والمغارم التى فرضوها على أهـل القاهرة وذكره نقولا الترك على أنه من أخلص أصدقاء الفرنسيين . وقد خلع من نقابة السادة البكرية عندما عادت السلطة إلى العثمانيين .

وقال الوالى العثمانى فى تبرير ذلك : « إن الشيخ خليـل لا يصلح لسجادة الصديق » .

وكانت للشيخ بنت ، يقال إن اسمهـا زينب[٢] لا أجد فى وصفها كلمة أليق مما عبر به الجبرتى . فقد قال إنها «ممن تبرج مع الفرنسيس . وخرجت عن طورها معهم» ، وقال مؤرخون آخرون أفصح وأوضح من هذا التعبير اللبق المهذب ، الذى وصفها به الجبرتى . قالوا إنها كانت عشيقة نابليون . وإنها كانت تسقى الفرنسيين الخمر ، وكان أبوها يشرب معهم .

فلما خرج الفرنسيون من القاهرة . وعاد الحكم فيهـا إلى العثمانيين ، طلبها الوالى من بيت أمها . وأحضروا أباها أيضاً . « فسألوها عما كانت تفعل . فقالت إنى تبت من ذلك . فقالوا لأبيها : ما تقول أنت . . ؟ فقال : — أقول إنى برئ منها . فكسروا رقبتها » . أى قتلوها .

وقد خلت سجادة البكرية ، بوفاة أخيه أحمد ، ولـكنه لم يليها « لما فيه من الرعونة ، وارتـكابه أموراً غير لائقة » . ولـكن الفرنسيين ولوه نقابة جميع الأشراف ، بدلا من السيد عمر مكرم .

وقد لقى خليل البكرى من قسوة الثائرين عليه ، فى القاهرة ، شيئاً كثيراً ، نجد تفصيله فى الجزء الثالث من كتابنا .

ويبدو أن أثر هذه الحياة الجديدة التى شهدها أهل القاهرة عند الفرنسيين ، كان قويا بالغ الشدة . فقد ذكر الجبرتى ، وغيره ، أن محترفات البغاء فيها كثر عددهن ،

---

(١) المدير المالى للحملة الفرنسية

(٢) يشكك على باشا مبارك فى خططه ، فى قصة زينب هذه . ولـكنه لا يذكر سبباً لهذا التشـكيك . ولعله الحرص على كرامة هذا البيت العريق .

حتى أصدر الديوان أمراً بمنع دخولهن القاهرة وضواحيها شهراً . وفرض عقوبة الإعـــدام على من تدخلها منهن ، أو من يُدخلها . وكان سبب ذلك انتشار الطـاعون .

وليس غريباً أن يكون ذلك . فقد غلبت مصر على أمرها أمام جيش نابليون . والحروب لها معقّبات . وللجيوش غزوات ونزوات ، غير غزوات الحرب . وخاصة فى بلدٍ فيه من الفقر واضطراب الحياة ، مايجعل كل أمر هيّناً ، وكل عسير عزيز ، من العفة والشرف ، ميسورا قريب المنال .

وليست العفة وحدها هى التى هان أمرها عند كثير من الناس ، إذ ذاك . فقد خرج بعضهم من الإسلام إلى النصرانية « لمـا رآه من تقدم من يخـدم الفرنسيس من النصارى واليهود » كما يقول الجبرتى .

وللشيخ حسن العطار بيت من الشعر ، يصف فيه حال الجنود الفرنسيين وبعض سلوكهم فى القاهرة هو : —

إن الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم فى مصرنا ، بين حمار وخمار

فقد كان لهم ولع شديد بركوب الحمير ، حتى ليقضى بعضهم يومه كله على ظهرها . كما كان فيهم إسراف شديد أيضاً فى شرب الخمر ، وكان بعض المصريين أو القاهريين يتأثر بذلك ، من غير شك .

فى التنظيم والإدارة

ويسجل الجبرتى شيئاً غير قليل ، من الأعمال ، أو التنظيمات ، التى كان لها أثر طيب فى حياة أهل مصر . فمن ذلك عنايتهم بالصحة والنظافة . فقد أمروا ألا يدفن أحد من الموتى داخل القاهرة ، وخصصوا لذلك أماكن فى خارجها . وأمروا بالتبليغ عن المرضى ، عند وجود وباء ، وعدم الإنتقال من مكان موبوء . ومن يخالف هذين الأمرين يقتل ، ومنعوا الناس من دخول القاهرة مدة الوباء ، ومن دخل يقتل ، ولو كان فرنسياً . وحتّموا أن يكشف الطبيب على كل مريض ، وأقاموا حجراً صحياً فى بولاق . يتلقون فيه كل قادم للقاهرة حتى يكـشف عليه ،

فإن كان مريضاً حجز . وينقل إليه كل مريض حتى يشفى أو يموت ، وحتموا كذلك نشر الشياب ، وتطهير المنازل ، حتى لا ينتقل منها وإليها الوباء . ولا شك فى أن من أكبر الدوافع لهم على إصدار هـذه القرارات ، المحافظة على سلامة جيوشهم ، ولـكن هذا لا ينفى أن المصريين رأوا ، لأول مرة ، هذه الحيطة والعناية بالصحة العامة .

وعرف المصريون ، شهادة الميلاد ، فقد أمروا بقيد كل مولود . وكذلك أمروا بتسجيل الممتلـكات ، وإضاءة الشوارع والأزقة . كل دار عليها قنديل ، وكل ثلاثة دكاكين قنديل . وكان أهل القاهرة يعملون ذلك من قبل . ولـكنهم لم يكونوا حريصين عليه ولا مثابرين ، وقد كانت عناية الفرنسيين بالإضاءة ، مما يعينهم على حفظ الأمن ، ويساعدهم فى مراقبة الناس ، وتحرى حركاتهم .

وكذلك أنشأ الفرنسيون إدارة خاصة لجوازات السفر ، وخصصوا ضريبة ثابتة على المواريث . أثنى عليهم فيها الجبرتى . لأن هذه الضريبة كانت ، قبلهم ، يقدرها القاضى كما يشاء . وكان فيها من الغبن والشطط والتعسف ، بل من السرقة أحياناً ، شىء غير قليل . حتى ذكر أن بعض القضاة كان يأخذ ضريبته الثقيلة . فإذا أخذها — ولا بد أن يأخذها أولا — لم يبق للورثة شىء . وكذلك فرضوا رسماً ثابتاً على الأقضية ، وخصصوا وثائق لتسجيل عقود الزواج خاصة .

ومن طيب أعمالهم التى سجلها الجبرتى ، محاربتهم التسول والشعوذة . فقد خصصوا داراً جمعوا فيه المتسولين ، وفرضوا لهم مالاً ينفق عليهم من أموال الأوقاف . وكان بعض البلهاء ، ومدعى الولاية ، يسيرون فى شوارع القاهرة ، عرايا ، يصيحون ويصرخون . مع أنهم ، كما يقول الجبرتى ، لا يصومون ولا يصلون . فسأل الجنرال منو العلماء عن ذلك ، وهل هو من الدين ، فأنكروه . فأمر بالقبض عليهم جميعاً . حيث أدخل المريض منهم المستشفى ، وأخرج السليم من القاهرة .

وأنشأوا فى الديوان ماعرف بعد ذلك ، فى الحـكومات المنظمة ، «بالأرشيف» . تحفظ فيه صور الشكاوى والظلامات ، وما يصدر عنه من الأحـكام . وأدخلوا

كذلك شيئاً من التنظيم الحكومى لأمن الدولة . فقد أمروا كل صاحب فندق ، أو خمارة ، أو بيت ، بأن يكتب اسم من ينزل فى محله ، أو يدخله . ويبلغ ذلك لحاكم البلد ، قبل مرور يومين ، مع بيان الجهة التى قدم منها النازل ، أو الزائر ، وسبب قدومه ، ومدة سفره ، والعمل الذى يزاوله[1] .

وتبدو واضحة ، مصلحة الفرنسيين فى ذلك .

وحارب الفرنسيون الرشوة أيضاً . فقد كثرت شكوى الناس من الضرائب وسوء تحصيلها ، وجعلها فى أيد غير مصرية. فترك الفرنسيون أمر تحصيلها « لعقلاء المسلمين » مع ضمانهم لها . على شرط أن يعفى منها النساء ، والصبيان ، والفقهاء ، والخدم ، والفقراء . وكانت الضرائب فى أيدى السابقين ، سبباً من أكبر أسباب الرشوة والظلم .

ويقول الجبرتى إنهم عندما انشأوا الديوان للفصل فى المظالم ، فرضوا لأعضائه ، ومترجميه وكتبته ، مرتبات « تكفيهم ، وتغنيهم عن الرشوة » .

وكان من أثر الحملة الفرنسية ، فى نظم الدولة العامة ، إدخال النظم العسكرية الحديثة فى الجيش . فقد بدأ الجند ، بعد خروج الفرنسيين ، يتبعون نظمهم فى التدريب ، ويلبسون ثيابهم التى يصفها الجبرتى « بالضيقة المقمطة » . وسمى العثمانيون ذلك بالنظام الجديد . ثم سلك محمد على هذا السبيل أيضا ، بعد ذلك . وزاد على ذلك الإفادة من علوم الفرنسيين واستخدامها . حيث يقول الجبرتى إن محمدا عليا ، وهو يشتغل بسد ترعة الفرعونية « كان يشق الجبل بألغام البارود ، مثل عمل الإفرنج »

وكذلك كان لهم أثر فى العمارة وطرزها ، حيث يقول : إن أحد رجال محمد على أنشأ له داراً عظيمة بخطة باب اللوق ، على نسق الأبنية الإفرنجية والرومية .

وأقاموا مصانع الأدوية ، وطواحين الهواء ، وفرضوا الحجر الصحى فى خارج القاهرة ، وفى الإسكندرية ، ثم فى رشيد ودمياط .

---

(١) عن مخطوط مظهر التقديس ، بذهاب دولة الفرنسيس .

التكافل الاجتماعى والعاطفة الوطنية

وهناك أثر اجتماعى للحملة ، لم يقصد إليه نابليون ورجاله ، وإنما أوجدته الأحداث والظروف ، وهو ظهور التكافل الاجتماعى ، والشعور العام ، الذى يقرّب بين الناس ، ويجمع نفوسهم فى إحساس واحد . ونرى من مظاهر هذا التكافل شيئاً غير قليل ، فيما كتبناه عن مقاومة الفرنسيين فى الجزء الثالث من الكتاب .

ولكنا نذكر هنا أمثلة أخرى لهذا التكافل ، فمن ذلك ماسجله الجبرتى ، عند ذكره شروط الصلح التى خرج بها الفرنسيون من مصر . فقد كان منها أن يدفع المصريون نفقات سفرهم ، وهى ثلاثة آلاف كيس . وتعهد السيد احمد المحروقى بجمعها . فكان الناس يبادرون ، مسرورين ، لدفع مافرض عليهم ، لعلمهم أنه سينفق فى خروج الفرنسيين من وطنهم . أو كما يقول الجبرتى ، « كل من توجه عليه مقدار من ذلك ، اجتهد فى تحصيله ، وأخرجه عن طيب قلب ، وانشراح خاطر ، وبادر بالدفع من غير تأخير . ويقول سنة مباركة ، ويوم سعيد » . وكذلك اشترك فى دفع الضرائب التى فرضها نابليون ، المسلمون ، والنصارى ، واليهود ، والشوام ، والقبط ، والتجار الأجانب .

وكان نابليون ، عند عودته من الشام ، أحضر معه بعض الأسرى من المصريين ، وجدهم يحاربون مع أحمد باشا الجزار فى غزة ، ويافا . فأمر بإطلاق سراحهم ، بشرط أن يدفعوا قدراً من المال ، عجز الأسرى عن دفعه ، فوفّاه عنهم الناس ، وجمعوه من أموالهم .

وكذلك ظهرت عند أهل مصر العاطفة الوطنية ، وأخذت تزاحم ، أو تدافع العاطفةَ الدينية . بل نجد أنها ، وقتاً ما ، تغلبت عليها وقهرتها . وما نجده من خروج أهل القاهرة على العلماء ، واعتدائهم عليهم ، عندما توسطوا فى الصلح بينهم وبين الفرنسيين ، ما نجده من ذلك فى الجزء الثالث من الكتاب ، فيه كفاية وغنية لإبراز ما نريد . وكذلك ما فعلوه بالسيد خليل البكرى .

وإلى جانب هذا التكافل الذى لم يقصده الفرنسيون ، وجد أثر مضادٌّ له ، قصدوه هم ، وأوجدوه . وهو التفريق العنصرى ، أو الطائفى .

فقد ألف نابليون فرقة من المغاربة، حيث جمع له واحدمنهم، اسمه عمر القلقجى، كثيراً من شبابهم • اختار منهم طائفة ، درّبها على أصول الحرب . وجعل عمرا هذا قائدا لها . وضمها إلى جيشه . وقد حاربت فرقة المغاربة هذه، المماليك، وحاربت الثائرين من أهل مصر ، مع الفرنسيين .

وكما فعل الفرنسيون بالمغاربة المسلمين ، فعلوا بقبط مصر . جمعوا منهم فرقة ، وأقاموا المعلم يعقوب قائداً عليها .

وكذلك ألفوا فرقة من أبناء الأروام . كان عددها — على رواية نقولا الترك — ثلاثمائة . وحاربت، بقيادة الجنرال نقولا ، مع الفرنسيين، فى موقعة الرحمانية ، ضد الأنجليز . وليس هؤلاء الأروام ، والأقباط ، والمغاربة ، ثياب الجند الفرنسى . وقد تحدثنا عن المعلم يعقوب وفرقته فيما مضى من هذا الفصل .

وكان مما فعله الفرنسيون ، مما يثير التفريق العنصرى ، أن جعلوا بعض النصارى ، من القبط ، والشوام ، نظاراً على أوقاف طلبة الكتاتيب ، والمقرئين للقرآن . وكذلك جعلوا منهم ، محصلين للضرائب والغرامات ، أوقعو بالناس ، فى القاهرة والريف ، كثيرا من العنت والظلم .

وقد اجتاحت القاهرة ، والأقاليم ، موجة من العدوان على النصارى ، واليهود، ومصادرتهم . كأثر من آثار استخدام الفرنسيين لهم . وكان ذلك العدوان بعد خروجهم من مصر .

الأجانب

وأعتقد أن من أهم الآثار الاجتماعية ، والسياسية والاقتصادية أيضاً ، التى خلفتها الحملة الفرنسية . زيادة الأجانب فى مصر ، زيادة كبيرة . وقد نقل على باشا مبارك ، عن مصادر فرنسية ، أن عدد سكان القاهرة ، سنة دخولهم [١٢١٣ — ١٧٩٨ م] . كان مائتين وستين ألفا . وكان عدد الأجانب فيها أربعمائة « أكثرهم دخلها مع الفرنسيين » أما الأروام ، والشوام ، والمارون ، والأرمن ، فكانوا نحو اثنين وعشرين ألفا .

وليس هؤلاء الأربعمائة من الأجانب وحدهم ، هم الذين دخل معظمهم

مع الفرنسيين . بل بقى كثير من جنودهم ، ورجالهم ، فى مصر ، بعد صلحهم وخروجهم منها . وبعض هؤلاء الجنود ، الذين بقوا فى مصر من الفرنسيين ، انضم إلى جيوش المماليك ، وحارب معهم فى الصعيد .

وقد ظهر أثر ذلك بعد زمن غير بعيد من خروج الفرنسيين . فإن اعتماد محمد على على الأجانب ، وعلى الأرمن والفرنسيين خاصة ، أمر معروف . ونجد فى حديث الجبرتى عن محمد على كثيرا من السخط ، لأنه جعل الدولة ، ومناصبها الكبرى ، واختار خاصته ورجاله ، من الأجانب .

الديمقراطية

ومما سجله الجبرتى أيضاً من آثار الحملة الفرنسية فى حياة الناس ، تعريفهم ، لأول مرة ، بالديمقراطية . فقد أنشأ نابليون ، وقواده من بعده ، ديواناً من المصريين والأجانب ، أو من العلماء وحدهم ، لحكم مصر عن طريقه . وكان مقر هذا الديوان بيت قائد أغا ، قرب الرويعى فى الأزبكية . وأنشأ دواوين أخرى فى كل مديرية أعضاء كل ديوان منها سبعة . وجعل اختيار أعضاء الديوان الكبير فى القاهرة ، والدواوين الأخرى ، فى الأقاليم ، بالانتخاب . وحُددت لهـــا اختصاصات ، تتصل بالأمن ، ورعاية العدل بين الناس ، وبحث شكوى الشاكين ، ومظالمهم .

وقد أمر نابليون باستدعاء المشايخ . والوجاقلية ، أى رؤساء الجند ، فانتخبوا أعضاء الديوان الكبير . وعقد بعد ذلك جمعية منه ومن أعضاء الدواوين الإقليمية ، ليستشيرهم جميعا فى النظم التى يرون أن يسير عليها حكم البلاد ، وفى قوانينها القضائية ، والإدارية ، والمالية . وكان انتخاب الشيخ الشرقاوى رئيساً للديوان الكبير ، بالاقتراع السرى .

وقد قال الشيخ الشرقاوى إن هذا الديوان « كان فيه رحمة لأهل مصر » .

فهذه أسس الحياة الديمقراطية ، والبرلمانية . عرفتها مصر من الحملة الفرنسية . ولأمر ما لم تُفد مصر منها . ولم تبق فيها . بل لم يبق منها أثر فى الحكم ، ولا فى نفوس الناس وطبائعهم .

وقد سلب الفرنسيون ، عند خروجهم من مصر ، كثيراً من ذخائرها ، وتراثها الفكرى والثقافى . كما سلبوا أموال أهلها ، أو ما بقى من أموالهم مما كان له أثر ، أى أثر ، فى حياتهم الاجتماعية .

ومن ملاحظات الجبرتى على الفرنسيين ، فى مظهر التقديس ، أنهم لا يتحرّزون من كشف عوراتهم ، ومن قضاء حاجتهم الطبيعية أمام الناس ، وعدم التطهر ، بعدها ، بالماء . وعدم التصوُّن فى العلاقات بين الرجل والمرأة . وحلق لحاهم ، وشواربهم ، وإطالة شعر رؤوسهم وأجسامهم . وعدم خلعهم الأحذية فى أماكن الجلوس .

عوام أهل القاهرة

ومما سجله الجبرتى على أهل القاهرة ، أيام الفرنسيين ، ولو أنه ليس أثراً من آثارهم . أنهم ، بعد أن رجع نابليون من حملته على الشام ، « تجمع أمام داره بالأزبكية ، أرباب الملاهى ، والنساء « البطالات » وطوائف العامة ، ورعاع العالم من الحرافيش ، وأكلة الحشيش ، وملاعبى القرود ، والحواة ، والراقصات ، والخلابيص ، والمراجيح ، وغيرهم . كتجمعهم فى أيام العيد والمواسم » وبقى جمعهم هذ ثلاثة أيام . والفرنسيون فى هذه الأيام أيضاً يطلقون المدافع ، ويوقدون السواريخ والحرّاقات . ثم انصرفت جموع القاهريين بعد أن أعطاهم نابليون دراهم ، وبقاشيش .

فإذا ذكرنا ما كان بين القاهريين والفرنسيين من خصومات ، وما قام به الأوّلون من ثورات جارفة ضد نابليون وجيشه ، مما فصلناه فى الجزء الثالث من الكتاب . إذا ذكرنا ذلك ، كان هذا الذى سجله الجبرتى ، فى العجائب ومظهر التقديس ، أمراً عجيبا حقا ، لا يخلو من دلالة .

ثناء على الفرنسيين

وقد أثنى الجبرتى على الفرنسيين ، لإبطالهم السخرة ، حيث كانوا يفرضون للعمال الأجور ، ويوفونها لهم . بل كانوا يزيدونها عن الأجر المعتاد . وكانوا

يمدونهم بالآلات التى تريحهم فى العمل ، كآلات جر الأثقال ، ونقل الأتربة . ويريحونهم بعد الظهر . وكانت السخرة شيئاً مألوفاً جداً فى ذلك الزمن . حتى كان العامل الذى يقع من الإعياء والجهد ، يهال عليه التراب ، ويدفن حياً . كما نرى من حديثنا عن محمد على ، فى الجزء الثالث .

ومدح الجبرتى الفرنسيين لقتلهم الكلاب الضالة . ودقتهم فى صرف العملة واستبدالها . حتى قال فى ذلك هذه الجملة الصارخة : — « . لأن جميع معاملة الكفار سالمة من الغش والنقص ، بخلاف معاملات المسلمين » .

وأثنى عليهم لحبهم العلم . وأمانتهم فى الإشتغال به . وقد ذكر أنه كان يزورهم ، مع الشيخ السادات ، فى مساكنهم ، ويرى نقوشهم ، وصنائعهم ، وتصاويرهم ، وغرائبهم ، فيعجب بهذا كله إعجاباً شديداً .

وتلك الصفحات التى سجل فيها وصفه لدار الكتب التى أقامها الفرنسيون ، فى القاهرة ، وما كان فيها من المصنفات ، والكتب ، والآلات الدقيقة ، والصور ، والرسوم . والنظام الذى وضعوه لزيارتها ، والإفادة منها لمن شاء . ووصفه لتلك التجارب العلمية والكيمائية التى أجروها أمامه . وكيف وقف أمامها خائفاً ، متعجباً ، مبهوتاً ، كالطفل هذه الصفحات وتلك ، من أجل ما تضمنه كتابه ، وأكثره طرافة وصدقاً . وقد ذكر فيها أن دار الكتب تلك ، كانت فيها صور مرسومة للنبى محمد ، عليه السلام ، وحوله كبار الصحابة ، وللخلفاء الراشدين . وللمعراج .

وكذلك وصفه للطائرة « البالون » التى أطلقها الفرنسيون فى سماء القاهرة .

فى الثقافة والفكر

وأعتقد أن الأثر الثقافى للحملة الفرنسية ، فى مصر . لم يكن أثراً ضعيفاً . ولولا الملابسات التى كانت سائدة إذ ذاك ، والخصومات العنيفة ، المتلاحقة بينهم وبين المصريين . وقصر الفترة التى أقاموها فى مصر ، واضطرابها ، ولولا الفارق الدينى أيضاً ، لولا هذا وذاك ، لأفادت مصر ، من الفرنسيين ، فوائد كثيرة ، من الناحية الثقافية والعلمية .

ومع هذه الحوائل ، والمعوّقات كلها نستطيع أن نقول ، إن طائفة غير قليلة من سادات أهل مصر، وكبار علمائها ورجالها ، قد تركت إقامة الفرنسيين بينهم ، وخلطتهم بهم ، أثراً غير يسير، فى ثقافتهم ، وفى نفوسهم. ولو أنهم كانوا يتحاشون أن يعرف ذلك عنهم . لأسباب من السهل إدراكها .

فقد عرفت مصر منهم ، لأول مرة ، المطبعة . حيث أحضر نابليون معه مطبعة تطبع باللغات الفرنسية ، واللاتينية ، واليونانية ، والسريانية ، والعربية[1]. وقرأ المصريون رسائل نابليون إليهم، ومنشوراته ، وبياناته ، مطبوعة فيها .

وقد تأثرت ثقافة فريق من كبار القوم ، بهذه المعارف والعلوم الجديدة ، التى رأوها عند العلماء من رجال الحملة الفرنسية . والجبرتى نفسه كان ممن تأثروا بهذه المعارف والعلوم ، ولم يخف إعجابه بطائفة منها ، رغم حيطته فى ذلك وحذره . ونجد فى كتابه بعض ألفاظ فرنسية ، مثل « نو » و « مارش » ، وغيرها . وكذلك صديقه الشيخ حسن العطار ، الذى تولى مشيخة الأزهر فيما بعد . وقد كان أكثر صراحة من صديقه الجبرتى ، وأبين إفصاحاً عن تأثره بمعارف الفرنسيين وعلومهم . كما رأينا من ترجمته فى هذا الفصل .

ونجد هذا الأثر ، أو نحسّه ، فيما كتبه شيخ الأزهر عبد الله الشرقاوى ، فهو يكتب ، لأول مرة . ويقرأ المصريون، لأول مرة أيضاً ، كلمات الطبيعة ، والإلهية ، والكثملكة . ويعرف كلمات إنكار البعث ، والدار الآخرة ، ونبوة الأنبياء وتحكيم العقل ، والشرائع والأحكام الوصعية . يكتب الشيخ الشرقاوى ذلك فيما كتب عن « حقيقة حال الفرنساوية »[2] ثم لا نجد عنده من ذلك شيئاً من الثورة أو الغضب . بل نكاد نحس ، فيما كتبه عنهم ، شيئاً قليلا من الرضى والتقدير، والتأثر بالخلطة والصداقة والمعرفة .

---

(١) عن نقولا الترك

(٢) ص ٧٦ من كتابه تحفة الناظرين

تصويب

وقعت في هذا الجزء ، بعض أخطاء مطبعية . نورد تصويبها فيما يلى : —

الخطأ	صفحة	سطر	الصواب
كتخذا	٧	١٩	كتخدا
»	»	٢٠	»
الأشربة	١٠	٦	الأشربة
٣ وبلغ	»	٧	وبلوغ
إلى فى أبيه	١٢	٨	إلىٰ ابيه فى
علىّ	١٣	١	علىٌّ
رعينا	٤٩	٦	راعينا
أفقرته	٥٣	١٠	أقفرته
غينه	٥٩	٤	غنية
مراد	»	١١	مرادا
أكفائهم	٦١	٨	اكفائِهم
بيته	٧٣	٢٠	بيته
إحوانه	٧٦	١٠	إخوانه
المطار	١٠٠	١٢	العطار
بيب	١٠١	٤	بيت
يل	١٠١	١٥	بل
محارى	١١١	٢٤	مجارى
نؤرحه	١١٣	١٩	نؤرخه
فيها	١١٧	٢٠	فيها
يمنع	١٢١	٢٤	يمنع
ينفضن	١٢٦	١٥	ينفضن
فيحضرونه	١٣١	٥	فيحضروه
والستين	»	٦	والستون
واستغاثوا	١٣٦	٤	واستغاثوا
إذا	١٤٧	٢٤	إذ
البرين	١٥٠	١٥	البر
الفجر	١٥١	٣	الفحر
الثائرين	١٥٩	٢٢	الثائرين
أجنبى	١٦١	٥	أحنبى
إن	١٦٢	٦	أن
التهمة	»	١٠	الهمة
سرششمة	١٦٥	٢٢	شرششمة
إن	١٦٧	١١	أن
ونالت	١٦٨	٧	و الت
واختفت	١٧٣	٢٢	واحتفت
جند	١٧٥	٩	حند

obeikandl.com